



أحفظ الله محفظي



الشيخ

د. محمد بن مبارك بن تزيلاوي المزروعي



الحمد لله الواحد الأحد، والصلاة والسلام على نبينا محمد، وعلى آله وصحبه ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين.

أما بعد...

إن من القواعد الإيمانية المهمة، والقيم الأخلاقية العظيمة: ما ذكره النبي ﷺ في وصيته العظيمة لابن عباس ؓ وقد كان رديفه، فقال كلمة لا بد أن تُحفظ، وتُنكت في القلوب، قال: «**احْفَظِ اللَّهَ يَحْفَظَكَ**» ^(١).

نعم؛ من أراد الحفظ من الله، والله ﷻ خير الحافظين، ولا حفظ أتم من حفظه ﷻ، حتى لو اجتمع جميع الناس على أن يضروك بشيء؛ لن يضروك بشيء إلا قد كتبه الله عليك. الله ﷻ هو الحافظ، وقد ضرب الله لنا في القرآن قصصاً وأمثالاً لحفظ الله ﷻ لأوليائه المتقين الصالحين؛

ومن ذلك: ما ذكره الله ﷻ في سورة الكهف من قصة أصحاب الكهف، تأملوا هذه القصة العجيبة؛ في كهف يعيشون فيه نياماً، ينامون فيه ثلاثمائة سنين وازدادوا تسعة، ما هو السر العظيم الذي حفظهم، ومن يمكن له في هذه الفترة الزمنية الطويلة أن يحتفظ ببدنه وصحته، لا يلبث الجسم إذا كان نائماً على مكان فترة قصيرة من الزمن إلا ويتغير ويتآكل، وهم يمكثون في هذا الكهف ثلاثمائة سنين وفوقها تسع سنوات!

كما قال الله ﷻ: ﴿إِذْ أَوَى الْفِتْيَةُ إِلَى الْكَهْفِ فَقَالُوا رَبَّنَا إِنَّا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا﴾ [الكهف: ١٠].

قصَّ الله ﷻ هذه القصة فقال: ﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُم بِالْحَقِّ﴾ [الكهف: ١٣]؛ انظروا إلى السبب العظيم الذي كان هو

الأصل في حفظ الله تعالى لهم، قال: ﴿إِنَّهُمْ فَتِيَّةٌ ءَامَنُوا بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَهُمْ هُدًى﴾ [الكهف: ١٣].

هنا نسائم الإيمان التي تحتوي هذه الثمرة العظيمة؛ وهي حفظ الله لهؤلاء الفتية وهي أن الله حفظهم لما حفظوا دينه، قال ﷺ: ﴿وَرَبَطْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ إِذْ قَامُوا فَقَالُوا رَبُّنَا رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَنْ نَدْعُو مِنْ دُونِهِ إِلَهًا لَقَدْ قُلْنَا إِذَا شَطَطًا﴾ [الكهف: ١٤].

أعظم قيمة إيمانية؛ تحقيق توحيد الله ﷻ. تحقيق توحيد الله ﷻ مفرع يلجأ إليه الموحدون، وركن وثيق يركن إليه المؤمنون، وحصن حصين يحتمي فيه المتقون، إذا كان أهل الإشراك لما ركبوا الفلك فدعوا الله مخلصين له الدين نجاهم ﷻ؛ فما بالك بأهل الإيمان إذا حققوا توحيد الله ﷻ؟! بلا شك أن الحفاظ أعظم؛ جاء عن عكرمة أنه قال: «فإذا كان الله ﷻ قد نبجى أهل الإشراك بإخلاصهم فأهل التوحيد أولى بالنجاة» أولى بالحفظ، أولى بمثل هذه الكرامة.

قال الله ﷻ في قصة أصحاب الكهف: ﴿هَؤُلَاءِ قَوْمُنَا اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ ءَالِهَةً لَوْلَا يَأْتُونَ عَلَيْهِمْ بِسُلْطَانٍ بَيِّنٍ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا﴾ [الكهف: ١٥].

اعتزلوهم لما عبدوا غير الله فأووا إلى ذلك الغار، واسع الفجوة، بابه من نحو الشمال لا تدخله الشمس لا في طلوعها ولا في غروبها، وتولى الله ﷻ حفظهم؛ فأصبح يُقلبهم ﷻ ذات اليمين وذات الشمال، وضرب على مكان الكهف نطاقاً من الرعب؛ مع أنه قريب من قرية قومهم إلا أنهم لا يصلون إليهم، ويهابونه إذا وصلوا إليه ﴿فَاللَّهُ خَيْرٌ حَافِظًا وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾ [يوسف: ٦٤].

تأملوا قصة يوسف ﷺ كيف كان حفظ الله له؟! صغير رُمي في بئر، ثم يُباع، ثم يُتهم فيُسجن وهكذا من محنة إلى

محنة، والله ﷻ يقول في السورة: ﴿فَاللَّهُ خَيْرٌ حَافِظًا وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾ [يُوسُف: ٦٤].

انظر لحفظ الله لموسى ﷺ؛ طفل صغير قد جمع فرعون الجموع على قتل جميع الأولاد، فتلقيه أمه في تابوت في بحر، والله ﷻ يقول: ﴿وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِي إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ﴾ [الْقَصص: ٧].

حفظ الله ﷻ أعظم من كل حفظ؛ فمن توكل عليه، وأطاعه، وعبده، ورجع إليه، ودعاه، فلا بد أن يكون الله ﷻ له حافظًا؛ لأنَّ النبي ﷺ يقول: «**أَحْفَظُ اللَّهِ يَحْفَظُكَ، أَحْفَظُ اللَّهَ تَجِدُهُ تُجَاهَكَ**»^(٢)؛ «**تعرف على الله في الرخاء يعرفك في الشدة**».

إذاً من أعظم أسباب حفظ الله للعبد أن يحفظ العبد شرع الله؛ وحفظ شرع الله ﷻ بثلاثة أمور: بتعلُّمه.

وبالعمل به.

الدعوة إليه لمن كانت عنده القدرة وتأهل في الدعوة إليه. فمن كان كذلك فلا بد أن تحوطه حماية الله، ومعية الله، وحفظ الله.

ومن الأسباب الجالبة لحفظ الله للعبد: أن يكون العبد ذاكرًا لله؛ في نومه، وعند استيقاظه، وعند خروجه من بيته؛ لأنه ما دمت أنك ترى وتسمع فلا بد أن ترى شيئاً من الفتن وتسمع شيئاً من تلك الشهوات والشبهات، والشيطان يؤز ويوسوس ويُزين، والدنيا مزخرفة مجملّة كما قال ﷺ: «**إِنَّ الدُّنْيَا حُلْوَةٌ خَصِرَةٌ**»^(٣) فكيف ينجو الإنسان من هذه الخطاطيف؛ «**... يُصْبِحُ الرَّجُلُ مُؤْمِنًا وَيُمُوسِي كَافِرًا، أَوْ يُمُوسِي مُؤْمِنًا وَيُصْبِحُ كَافِرًا، يَبِيعُ دِينَهُ بِعَرَضٍ مِنَ الدُّنْيَا**»^(٤)، فمن أراد الحفظ؛ حفظ الدين، وحفظ الصحة،

(٢) أخرجه الترمذي (٢٥١٦).

(٣) أخرجه مسلم (٢٧٤٢).

(٤) أخرجه مسلم (١١٨).

عليه بذكر الله ﷻ والرجوع إلى الله ، لاحظ إذا ذكر العبد الله ونام على وضوئه بات ملك يحرسه ، وإذا قرأ آية الكرسي ينام وعليه حافظ من الله لا يقربه الشيطان ، و﴿ إِذَا خَرَجَ الرَّجُلُ مِنْ بَيْتِهِ قَالَ : بِاسْمِ اللَّهِ ، تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ ، لَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ ، فَيُقَالُ لَهُ : حَسْبُكَ ، هُدِيََتْ وَوُقِّيَتْ وَكُفِّيَتْ ﴾ (٥) .

ومن الأسباب الجالبة لحفظ الله للعبد الصدقة ، والإحسان إلى الناس ، صدقات السرتقي مصائب السوء ، والمعروف يقي الإنسان تلك المصارع السيئة .

وأيضاً من الأسباب المهمة التي نستنتجها من قصة أصحاب الكهف ؛ أن من أراد البعد والسلامة وحفظ الله فلا بد أن يبتعد عن مواطن الفتن والشر والزلل وخصوصاً التي تخطف دينه واستقامته ، وتضعف إيمانه .
والكسر في الدين صعب غير ملتئم وكل كسر الفتى فالدين جابره

كل كسر قد ينجبر إلا الكسر في الدين ؛ فإنه صعب الجبران ؛ لذلك أتت الآيات بالتحذير من أن ينسى الإنسان شرع الله .

فقال ﷻ : ﴿ نَسُوا اللَّهَ فَنَسِيَهُمْ ﴾ [التوبة: ٦٧] ؛ نسوا الله ﷻ ما عرفوا ، ونسوا شرعه ما عملوا به ولا تعلموه فنسيهم الله ، فما بالك بإنسان تركه الله ﷻ ، لا يكاد يهتدي لمصالح نفسه كما قال الله ﷻ في : الأخرى : ﴿ نَسُوا اللَّهَ فَنَسِيَهُمْ أَنْفُسَهُمْ ﴾ [الحشر: ١٩] ؛ حتى مصالح أنفسهم لا يكادون يصلون إليها .

لذلك ترى بعض الناس يرى طريق الغي ، وطريق الفتن ويعرف ويوقن أن هذا الطريق طريق شر ، ولكنه يُردي نفسه فيه ، ويسير في دركاته ، ويتبع خطوات الشيطان ، خذلان وركون إلى النفس ؛ ومن وكل إلى شيء ومنه النفس فقد وكل إلى ضعيف .

لذلك النبي ﷺ كان في الحديث يقول : « اللَّهُمَّ رَحِمَتَكَ

أَرْجُو، فَلَا تَكِلْنِي إِلَى نَفْسِي طَرْفَةَ عَيْنٍ» (٦).

فمن نسيه الله ﷺ أنساه نفسه ومصالح نفسه فكان أمره عليه فرطًا، لا يسترشد إلى خير، تتخطفه الشياطين، ويضيق عليه صدره، وتضيق عليه الدنيا، ويكون أصدقائه وقرنائه أهل الشر الذين يؤزونه أزا.

فيجد في قلبه الضيق والضنك والحزن والهَمُّ، وتجتمع عليه الدنيا؛ حتى أن بعضهم من شدة الضيق وكأنه يتنفس من خرم إبرة.

إذاً لنجعل هذه القاعدة أمامنا دائماً: «**احْفَظِ اللَّهَ يَحْفَظْكَ**» (٧).

إذا أردت حفظ الله فكن لشرع الله حافظًا، وإن أردت النصر من الله فكن لدين الله ناصراً، وإن أردت الكفاية من الله فكن على دين الله قائماً.

كما قال الله ﷻ: ﴿**أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ**﴾ (الزُّمَر: ٣٦).

قال ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ كلمة جميلة، قال: «فمن حقوق العبودية التامة تحققت له الكفاية التامة».

نسأل الله ﷻ أن يحفظنا بحفظه، وألا يكلنا إلى أنفسنا طرفة عين، وأن يجعلنا لشرعه حافظين، متعلمين، عاملين، داعين إليه بالحكمة والكلمة الصالحة الطيبة.

ونسأل الله ﷻ أن يُجنبنا وإياكم مضلات الفتن والشُرور والمحن، وأن يحفظ بلادنا وبلاد المسلمين من كل سوء. وصلى الله على نبينا محمد.

(٦) أخرجه أبو داود (٥٠٩٠).

(٧) أخرجه الترمذي (٢٥١٦).